كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام

بقلم :
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

السنة الثالثة عشرة ـ صفر ١٤١٤ هـ ـ العدد ١٣٤

دعوة الحق

كتاب شهري يصدر عن قطاع الإعلام والثقافة
برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة

المدير العام
محمد محمود حافظ
ص. ب. رقم : ٥٣٧ مكة المكرمة
هاتف ٥٤٣٦٥٣٠ ـ فاكس ٥٤٤٢٦٧٢

تطلب من : إدارة التوزيع والنشر
برابطة العالم الإسلامي
ص. ب. رقم : ٥٣٨
هاتف ٥٤٤٧٩٠٥ مكة المكرمة

مكاتب التوزيع في الخارج

جمهورية مصر العربية
مؤسسة الأهرام : القاهرة شارع الجلاء
هاتف ٧٥٥٥٠٠ – ٧٤٥٦٦٦

الجمهورية التونسية
الشركة التونسية للتوزيع
٥ شارع قرطاج تونس

المملكة المغربية
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
الدار البيضاء – ملتقى زنقة ديبان
وزنقة سان سانس

امتياز التوزيع داخل المملكة

الشركة السعودية للتوزيع
Saudi Distribution Co.
الادارة العامة : ص. ب ١٣١٩٥ جدة ٢١٤٩٣
هاتف : ٦٥٣٠٩٠٩ – فاكس : ٦٥٣٣١٩١

(سعر النسخة ٥ ريالات)
والاشتراك السنوي ١٠٠ ريال
للدوائر الحكومية والمؤسسات

من شروط البحث

١ – يكون البحث المقدم في خدمة الدعوة الإسلامية .
٢ – لا يكون قد سبق نشره .
٣ – يكون سالماً من الأخطاء العلمية واللغوية وموثوقاً توثيقاً علمياً مع ذكر المصادر التي اعتمد عليها الباحث.
٤ – تكون الآيات القرآنية مرقمة مع ذكر السورة ، وكذلك الأحاديث النبوية لا بد أن تكون مخرجة ، وأن تكون الإشارة إلى الآيات والسور والمراجع الأخرى في هامش أسفل الصفحة .
٥ – لا يزيد البحث عن مائة وخمسين صفحة حجم (الفلوسكاب) .
٦ – يفضل أن يكون البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة كتابة جيدة وتبقى صورته لدى المؤلف ولا يلتزم قطاع الاعلام والثقافة بإعادة البحث إذا لم ينشر.
٧ – لا بد من ذكر أسماء المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث مع فهرس عام للموضوعات ونبذة عن حياة المؤلف .
٨ – ترسل البحوث باسم مدير عام قطاع الإعلام والثقافة.

علما بأن الرابطة تقرر مكافأة تتناسب مع القيمة العلمية للبحث وذلك بعد نشره .

والله الموفق .

تسخير العلم
والعمل لمجد الإسلام

دعوة الحق
كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام

بقلم :
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

السنة الثالثة عشرة
صفر ١٤١٤ هـ ـ العدد ١٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا العمل وعنوانه : «تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام» عماده دراستان اثنتان عملتا من أجل الندوة العالمية للقرآن الكريم المنعقدة في كوالالمبور عاصمة ماليزيا، استجابة لدعوةٍ كريمةٍ من حكومة ماليزيا، توّجت بالموافقة الكريمة من المقام السامي. فبالإضافة إلى دعوتي للاشتراك حكماً في المسابقتين الدوليتين لتلاوة القرآن الكريم لعامي ١٩٩٢ و١٩٩٣م فقد تقرّر بشأن الندوة العالمية المنعقدة في ٢٣، ٢٤ شعبان عام ١٤١٢هـ الموافق ٢٦، ٢٧ فبراير ١٩٩٢م توجيه الدعوة إلى ثلاثة من الأساتذة من ثلاث دولٍ صديقةٍ هي أندونيسيا ومصر والمملكة العربية السعودية لكتابة البحوث وتقديمها في الندوة المذكورة. وكان العنوان الذي اقترح عليّ لكتابة البحث فيه وإلقائه في الندوة ممثلاً للمملكة العربية السعودية هو: «العمل على إعادة المجد الإسلامي الذي جاء به الإسلام» كما تقرّر بشأن الندوة العالمية المنعقدة في ٢٧ و٢٨ شعبان عام ١٤١٣هـ الموافق ١٨ و١٩ فبراير عام ١٩٩٣م توجيه الدعوة إلى أربعة من الأساتذة من أندونيسيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، والمملكة العربية السعودية لكتابة البحوث وتقديمها في الندوة المذكورة. وكان العنوان الذي اقترح عليّ للكتابة فيه ذا علاقة

بالعلم وهو: «مبدأ التقدم في نظر القرآن».

ولمّا كان العلم يسبق العمل وكانت الدراستان متكاملتين فقد تقرّر جمعهما تحت عنوان «تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام» توخّياً للفائدة ونزولاً على الرّغبة الكريمة للقائمين على شؤون سلسلة كتاب دعوة الحق التي تصدرها شهرياً رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، في الجمع بين العملين معاً، شاكراً لهم السهر على خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق نشر دعوة الحق وكلمة الصدق، سائلاً الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء وأن يجزل لهم المثوبة إنه على كل شيء قدير.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله إنه جلّ وعلا أكرم مسؤول وأعظم مأمول. وصلى الله وسلم على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة
يوم الثلاثاء ١١/ ٥/ ١٤١٤هـ
الموافق ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٣م

كتبه الفقير إلى عفو ربه
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

تمهيد

بين يدي الحديث في مبدأ التقدم في نظر القرآن الكريم والنجاح والفلاح أي العلم، وبين يدي الحديث عن مقومات مجد الإسلام من زاوية العمل، أود أن أشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور الأساسية.

أولاً: إن الحياتين، الأولى والآخرة، متلازمتان وغير منفصلتين في يقين المؤمن المسلم لله رب العالمين. إن المسلم موقن بما قرره الدين الحنيف بأن الحياة الأولى هي حياة العمل والكدح والحرث، وبأن الحياة الآخرة هي حياة الجزاء وجني الثمار، وإنما يكون الجزاء من جنس العمل، وإنما تكون الثمار من جنس البذور، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلايلومنّ إلا نفسه.

ثانياً: هنالك شرطان يجب توافرهما في العمل الذي يتقبّله الله تعالى بفضله، الشرط الأول أن يكون العمل صالحاً بمقياس الإسلام صواباً كما بينته سنة المصطفى ﷺ، فهنالك الاتباع لا الابتداع. والشرط الآخر أن يكون العمل خالصاً لله تعالى، يراد به وجهه الكريم جل وعلا، فلا مكان للرياء والسمعة وحسن الأحدوثة[1] عن أمير المؤمنين أبي حفصٍ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء مانوى، متفق على صحته، رواه إماما المحدثين البخاري ومسلم في كتابيهما اللذين هما أصحّ الكتب

(١) انظر مثلاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ٢٧ تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد بيروت، لبنان. الطبعة الأولى ١٩٧٦-١٣٩٦هـ.

المصنّفة[1] وعن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة[2] ويقاتل رياءً أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، متفق عليه[3] وعن أبي عبدالله جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال: كنّا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: إنّ بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولاقطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض، وفي رواية: إلا شركوكم في الأجر، رواه مسلم، ورواه البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: إن أقواماً خلفنا[4] بالمدينة ماسلكنا شعباً[5] ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر[6] وجاء عن المشركين قوله عز من قائل في سورة الفرقان[7] ﴿وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾ والهباء: دقاق التراب ومانبت في الهواء فلايبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة[8] وإذا كان الهباء المنتظم لاقيمة له فكيف وقد عبث به الهواء؟ لاشك أنه أقل قيمة، وإذا كان هذا هو مصير أعمال المشركين الصالحة فكيف بأعمالهم غير الصالحة![9] إن السبب وراء ذلك الخسران المبين إشراكهم مع الله تعالى وارتكابهم الذنب الذي لايغفره الله تعالى فأعمالهم ليست

---

(١) رياض الصالحين للنووي ٤ و٥ باب الإخلاص وإحضار النية، وثمة الحديث بتمامه، وانظر المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ١/ ٢٨٥ حديث رقم ٣٠٠.

(٢) حميّة، بتشديد الياء التحتية: أي أنفة وغيرة محاماة عن عشيرته.

(٣) رياض الصالحين ٧، وانظر صحيح البخاري ١/ ٤٣.

(٤) خلفنا بسكون اللام أي وراءنا، أو بتشديد اللام من التخليف.

(٥) الشعب بكسر الشين المعجمة: الطريق في الجبل.

(٦) رياض الصالحين ٥، ٦. (٧) الآية (٢٣).

(٨) مفردات الراغب الأصفهاني: «هبا» ٥٣٦.

(٩) درسنا الآية الكريمة في كتابنا تأملات في سورة الفرقان ٨٣ القاهرة ١٩٧٧م. وص ١١١ مكة المكرمة ١٤١٤هـ.

خالصة لله تعالى .

إن اختلال الشرطين معاً أو أحدهما مبطلٌ للأعمال محبطٌ لثوابها .

ثالثاً : مفهوم العبادة في الإسلام واسع إلى أبعد درجات الاتساع فكل عملٍ صالح يقوم به الإنسان وهو يريد به وجه ربه الأعلى يعتبر عبادة، بما في ذلك لقمة الطعام التي يضعها الزوج في فم زوجته . جاء في الحديث المتفق عليه[1] أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة حينما مرض مرضاً شديداً عام حجة الوداع وجاءه النبي ﷺ يعوده وكان سعد ذا مالٍ ولايرثه سوى ابنته فأراد أن يتصدق بنصف ماله فقال رسول الله ﷺ لا، وأراد أن يتصدق بالثلث فقال رسول الله ﷺ: «الثلث والثلث كثير أو كبير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة[2] يتكففون[3] الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعل في في[4] امرأتك»[5] .

وهكذا لا فرق في الإسلام بين الأعمال التي تسمى دينية وبين الأعمال التي تسمى دنيوية، إن المقياس واحد في حقها، وإن شرطي الصلاح والإخلاص لله تعالى ضروريان لقبول الأعمال واعتبارها عبادة لله تعالى بمعنى العبادة الواسع في الإسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم[6] .

---

(١) رياض الصالحين ٦، ٧ .
(٢) عالة : فقراء .
(٣) يتكففون الناس : يمدون أكفهم إليهم يستعطونهم .
(٤) في في امرأتك : في فم امرأتك
(٥) رياض الصالحين ٦، ٧ .
(٦) رياض الصالحين : ٥٧٥ .

وعنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشْهد فأُتِي به فعرّفه نعمته فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استُشْهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء! فقد قيل، ثم أُمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتِي به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم! وقرأت القرآن ليقال قاريء! فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأُتِي به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها ألا أنفقت فيها لك، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : جواد! فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار» . (رواه مسلم)[1] .

رابعاً : الإسلام علم وعمل، وفي الإسلام يسبق العلمُ العمل، جاء في سورة محمد ﷺ[2] قول الحق جل وعلا : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ وهذا الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه يجعل هذه الآية الكريمة من سورة محمد منطلق حديثه عن العلم قبل العمل، يقول رحمه الله تعالى رحمة واسعة[3] : «بابٌ : العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله، فبدأ بالعلم وأن العلماء هم ورثة الأنبياء وَرِثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة . وقال جل ذكره : ﴿إنما يخشى الله من

(١) رياض الصالحين : ٥٧٦ .
(٢) الآية : (١٩) .
(٣) صحيح البخاري : ١/ ٢٦ .

عباده العلماء﴾ وقال ﴿ومايعقلها إلا العالمون﴾ ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ وقال ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾ وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

ولما كان الجانب من الدراسة المتعلق بالعمل ذا شقين اثنين، يتعلق أحدهما بالمجد الإسلامي، ويتعلق آخرهما بالعمل على إعادة ذلك المجد بإذن الله تعالى فقد تألفت الدراسة من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقومات النجاح والفلاح.

وهذه المقوّمات مستمدّةٌ من الآيات الخمس الأُول من سورة البقرة وهي:

١- الاهتداء بنور القرآن الكريم.

٢- الإيمان بالغيب.

٣- إقام الصلاة.

٤- الإنفاق مما رزق الله تعالى عباده.

٥- الإيمان بالقرآن الكريم وبالكتب السماوية السابقة.

٦- الإيقان بالآخرة.

القسم الثاني: المجد الإسلامي.

ويتألف من العناصر التالية:

١- أحوال البلاد والعباد قبل الإسلام.

٢- جهاد في سبيل الله تعالى.

٣- أسوة حسنة في الأخلاق والدعوة إلى الله تعالى.

٤- أسوة حسنة في مجال العلم.

القسم الثالث : العمل على إعادة المجد الإسلامي .

ويتألف من العناصر التالية :

١ – عقيدة واحدة .

٢ – أمةٌ واحدة .

٣ – كتابةٌ واحدةٌ ولغةٌ علميّةٌ واحدة .

٤ – مكان واحد .

٥ – زيادة مطردة في عدد السكان .

٦ – تكامل في المواد الأولية .

القسم الأول
مقوّمات النّجاح والفلاح

تبيّن مما سبق أن الإسلام دين ودنيا، آخرة وأولى، علم وعمل، كما تبين أن العلم في الإسلام يسبق القول والعمل، وأن الوحي هو المصدر الأول للعلم في الإسلام قرآناً مجيداً وسنةً مطهرةً مبيّنةً للقرآن الكريم. وحينما نتأمل آي الذكر الحكيم التي تشير في حيّز واحد إلى مقومات التقدم والنجاح والفلاح بأكثر من سواها، من الجائز أن تكون الآيات الخمس الأُوَل من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ والتقوى جعل النفس في وقاية مما يُخاف، فالتقوى في المعنويات بمنزلة الوقاية في المحسوسات، فهي تحفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور. ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما رُوِي: الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه[1] وقد روى الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس، ثم قال الترمذي: حسن غريب[2]، وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبيّ بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى[3].

إن القرآن الكريم يريد من جميع الناس ان يصلوا إلى مرتبة التقوى

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني: «وقى» ٥٣٠ و٥٣١.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠.
(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠.

الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1] وإنما يتحقق ذلك عن طريق تحقيق مجموعة من النعوت التي يتصف بها المتقون المطبقون لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين.. إن حظ هؤلاء المتقين بنص القرآن الكريم هو التقدم والفلاح في الأولى والآخرة. وهذه هي الصفات أو عناصر النجاح والفلاح.

○○○

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٠ ومسند الإمام أحمد ١/ ٣١٥ حديث رقم ٣٧٤.

[١] الاهتداء بنور القرآن الكريم :

أشارت الآية الكريمة الثانية إلى نوعٍ من الهداية، قال تعالى : ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدىً للمتقين﴾ وهذا النوع من الهداية هو هداية الدّلالة والإرشاد، وهو عمل المرسلين والنبيين والدعاة إلى الله تعالى. جاء في سورة الشورى[١] خطاباً للمصطفى ﷺ قوله عز من قائل : ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ ولايستطيع المرسلون والنبيون فضلاً عن سواهم تجاوز هذا المستوى من هداية الدلالة والإرشاد، وهذا النوع من الهداية عمل القرآن الكريم .

وأشارت الآية الكريمة الخامسة إلى نوع آخر من الهداية قال تعالى : ﴿أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ وهذا النوع هو هداية التوفيق والسّداد. والله تعالى هو وحده لاشريك له الذي يملك هذا النوع من الهداية، قال تعالى[٢]: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعَّد في السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون﴾ وقال تعالى[٣]: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾ وقال تعالى[٤]: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين﴾

---

(١) الآيات ٥٢، ٥٣ .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥ .
(٣) سورة محمد ﷺ : آية ١٧ .
(٤) سورة العنكبوت : آية ٦٩ .

فلنتحول إلى الآية الكريمة الثانية التي تتحدث عن هدى الدلالة والإرشاد. قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدىً للمتقين﴾.

القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وآخراً، فلنتدبر بعض آي الذكر الحكيم وبعض أحاديث المصطفى ﷺ في هذا المعنى، جاء في سورة الإسراء[1] قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وجاء في سورة الزخرف[2] قوله تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ وجاء خطاباً لآدم وحواء عليهما السلام في سورة طه[3]، قوله تعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو. فإما يأتينّكم مني هدىً فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ قال ابن عباس: فضمن الله لمن اتّبع القرآن ألا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[4] وجاء في سورة النحل[5] قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلّهم يتفكرون﴾.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين. رواه مسلم[6].

---

(١) الآية ٩.
(٢) الآيات ٤٣-٤٤.
(٣) الآيات ١٢٣-١٢٦.
(٤) تفسير القرطبي ٧ والرسالة التدمرية لابن تيمية ٧٥.
(٥) الآية ٤٤.
(٦) رياض الصالحين: ٣٨٧.

وعن النَّوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتَى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقْدُمُه سورةُ البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما» (رواه مسلم)[1] وفي تسمية المصطفى ﷺ البقرة وآل عمران بالزَّهراوين أقوال للعلماء منها أن الزهراوين بمعنى النيّرتين مأخوذة من الزَّهَر والزُّهرة وذلك إما لهدايتهما قارئهما بما يَزْهَرُ له من أنوارهما أي من معانيهما، وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة[2] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَة الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران. متفق عليه[3]، التتعتع: التردّد في الكلام عِيّاً وصعوبة. وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة. ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن مُتَعْتَعاً عليه، ثم ترقّى عن ذلك إلى ان شبّه بالملائكة. والله أعلم[4] وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه» رواه البخاري[5] وروى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقّلة[6] إن عاهد عليها[7] أمسكها، وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه[8].

---

(١) رياض الصالحين ٣٨٦.
(٢) انظر تفسير القرطبي ١٢٤٥.
(٣) رياض الصالحين ٣٨٧.
(٤) تفسير القرطبي ٦.
(٥) رياض الصالحين ٣٨٧ وتفسير القرطبي ٥.
(٦) الإبل المعقّلة أي المربوطة بالعُقُل جمع عِقال وهو حبل يشد به البعير في وسط ذراعه.
(٧) عاهد عليها: حافظ عليها وتردد عليها وتفقدها.
(٨) تفسير القرطبي ١٧ وانظر رياض الصالحين ٣٨٩.

وإنّ لنا نحن الخَلَفَ في السَلَف الصالح أسوة حسنة في تلاوة القرآن الكريم وتدبره والعمل بمقتضاه، عن عثمان وابن مسعود وأُبَيّ أنّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلايجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا مافيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً[1] وعن أبي عبدالرحمن السُّلَميّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبدالله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[2]، وعن مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنةً، فلما ختمها نحر جزوراً[3] وقال عبدالله بن مسعود: إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، ويسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به[4].

إن الأمة الإسلامية ملزمة بالاستمساك بالقرآن الكريم وبسنة خير الأنام ﷺ المبينة للقرآن الكريم وإلاّ حقّ فيها - لا سمح الله - شكوى المصطفى ﷺ إلى ربه جل وعلا يوم القيامة على نحو ماجاء في قوله عز من قائل في سورة الفرقان[5]: ﴿وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ وها هو ذا المصطفى ﷺ يخاطب المسلمين في حجة الوداع بقوله عليه الصلاة والسلام لهم في عرفات[6]: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه» وها

---

(١) تفسير القرطبي ٣٤.
(٢) تفسير القرطبي ٣٤.
(٣) تفسير القرطبي ٣٤ والجزور بفتح الجيم مايجزر أي ينحر أو يذبح من النوق أو الغنم.
(٤) تفسير القرطبي ٣٤.
(٥) الآية: ٣٠.
(٦) السيرة النبوية ٤/ ٢٥١ طبع حلبي تصوير بيروت ١٩٨٥م.

هـو ذا القـرآن الكـريم يحذِّر المؤمنين أن تقســو قلـوبهم على غـرار أهل الكتاب الـذين قست قلوبهم بسبب طول الأمـد بينهم وبين نبيهم، قال عز من قائل[1]: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لـذكر الله ومانزل من الحق ولايكـونوا كـالـذين أوتـوا الكتاب من قبـل فطال عليهم الأمـد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾.

(١) سورة الحديد ١٦ .

[٢] الإيمان بالغيب :

أولى صفات المتقين الذين يهتدون بنور القرآن الكريم الإيمان بالغيب، وهذا يعني أن صفة الإيمان بالغيب أولى درجات الفلاح والتقدّم والنجاح في حق المسلمين لله رب العالمين بنص القرآن الكريم.

والغيب: مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال: غاب عني كذا، قال تعالى: ﴿أم كان من الغائبين﴾ واستعمل في كل غائب عن الحاسّة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب ويقال للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنه لايغيب عنه شيء. والغيب في قوله: يؤمنون بالغيب، مالايقع تحت الحواس ولاتقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد[١] «قال أبوجعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله، وكذا قال قَتادة بن دِعامة»[٢] و وبذلك يكون معنى يؤمنون: يصدّقون[٣] وحينما يكون الإيمان بالغيب شاملاً أركان الإيمان الستة ومنها القضاء والقدر[٤] يكون معنى ذلك أن الإيمان بالغيب صفة شاملة لكل ماغاب، يتسم بها

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، «غيب» ٣٦٦ و٣٦٧ وانظر تفسير الطبري ١/ ٧٨ وتفسير القرطبي ١٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤١.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٧٨ وتفسير القرطبي ١٤١.

(٤) تفسير القرطبي ١٤٢ وتفسير الطبري ١/ ٧٨.

المؤمن في ضوء تبيين المصطفى ﷺ أركان الإيمان وهي ستة، ويقع الإيمان وسطاً بين الإسلام بأركانه الخمسة المعروفة وبين الإحسان ذي الركن الواحد بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

ولمّا كان الإيمان بالله تعالى ركناً مشتركاً بين الإسلام والإيمان والإحسان فهو أول أركان الإسلام والإيمان وهو كل الإحسان، ولمّا كان الإيمان بالله تعالى أول مقومات الإيمان بالغيب فإن كل ذلك دليل على مدى أهمية الإيمان بالغيب في حق كلٍّ من الفرد والجماعة والأمة، وبالتالي فلا مكان لدى الأمة المسلمة لله رب العالمين لما يسمى بالإلحاد ولكل حماقةٍ من الحماقات التي تتطاول على مقام الذات العلية بأدنى سوء. إنّ الأمة المسلمة لله رب العالمين تؤمن بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد رباً وإلهاً، فهو وحده لاشريك له مربّي عباده بنعمه وآلائه، وهو وحده لاشريك له المعبود بحق، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه. تأتمر الأمة المسلمة بما أمرها الله تعالى به، وتنتهي عما نهاها الله تعالى عنه. وكما كان الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد أولى صفات المؤمنين وأهمّ صفات المتقين بدليل ابتداء نعوت المتقين في الآيات الكريمات به كان الإلحاد أهم الصفات السيئة التي ينبغي على الأمة المسلمة أن تتخلص منها بالحجة والبيان واليد والسنان، قال عز من قائل[2]، ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ماكانوا يعملون﴾ وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف[3] والمعنى اتركوا الذين

(١) انظر صحيح البخاري ١/ ٢٠ ومسند الإمام أحمد ١/ ٣١٥ حديث رقم ٣٧٤.
(٢) سورة الأعراف ١٨٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩.

يميلون عن الحق في أسمائه حيث اشتقوا منها أسماءً لآلهتهم كاللات من الله والعزّى من العزيز ومناة من المنان[1] ويقول ابن القيم[2]: «وحقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصّواب فيها، وإدخال ماليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها»

إن الأمة الإسلامية حينما تتسم بحقيقة الإيمان بالله تعالى وذلك بالاستسلام لله تعالى بالخضوع، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، تكون بإذن الله تعالى محققة لأهم صفة ينبغي توافرها في خير أمة أخرجت للناس، وتكون بذلك منسجمة ومتناغمة داخلياً وخارجياً، وسيلة وغاية، حسّاً ومعنى.

إن الإيمان بالله تعالى حينما يكون حقاً لن يكون بإذن الله تعالى شيء من الفصام النكد الذي تغص به الدنيا اليوم بين الدين والدنيا، الآخرة والأولى. إن مشركي العرب وقد تورطوا في ضرب من هذا الفصام النكد جاء عنهم في القرآن الكريم قول الحق جل وعلا[3]: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون﴾ إن الشيء ذاته يقال عن الجاهلية المعاصرة.

(١) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩ وتفسير القرطبي ٢٧٦٤ والتفسير القيم ٢٩.
(٢) التفسير القيّم ٢٩.
(٣) سورة الأنعام ١٣٦.

[٣] إقام الصلاة :

الإسلام اعتقاد بالجَنان (القلب) ونطق باللسان، وعمل بالأركان (الأعضاء والجوارح) وقد كان الإيمان بالغيب من نصيب الجنان في المقام الأول ويلحق بالإيمان بالغيب الإيمان بالقرآن الكريم وبسائر كتب الله تعالى، والإيقان بالآخرة وهي من الغيب كذلك. ولما كان الإيمان أو الاعتقاد بالجنان أي بالقلب بحاجة إلى الدليل العملي كان ذلك الدليل في الصلاة، أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عبادة تتجه إلى الله تعالى مباشرة وتجمع بين النطق باللسان والعمل بالأركان. قال عز من قائل في صفات المتقين الذين يهتدون بالقرآن الكريم : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ والمعروف أن صيغة الفعل المضارع تفيد الاستمرار والتجدّد والدّوام، فهؤلاء المتقون مداومون على أداء الصلاة على أكمل وجه. والصلاة هنا الصلوات الخمس. قاله مقاتل. أو الفرائض والنوافل قاله الجمهور[1] وحينما يعبر عن الصلاة باسمها، وعن الزكاة بما يشملها ويشمل الصدقات : ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ يصحّ أن نفهم من اشتمال القول : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ على الزّكاة لأنها ركن إضافة إلى اشتمال القول على الصدقات أو النوافل أساساً. كما يصحّ في المقابل أن نفهم من القول : ﴿ويقيمون الصلاة﴾ النوافل إضافة إلى اشتمال القول على الصلاة المفروضة أساساً. «عن ابن عباس إقامة الصلاة إتمام الركوع والسّجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها

(١) البحر المحيط ١/ ٤٠ وانظر تفسير القرطبي ١٤٨ .

ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطّهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فهذا إقامتها[1].

وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث النبوية في الصلاة. جاء في سورة العنكبوت[2] قوله تعالى: ﴿اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر. والله يعلم ماتصنعون﴾. وبشأن صفات المؤمنين في سورة المؤمنون[3] تبدأ الصفات بصفة الخشوع في الصلاة، قال تعالى[4]: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ وتنتهي بصفة المحافظة على الصلاة، قال تعالى[5] ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أما سورة المعارج فإنها في حديثها عن المؤمنين المستثنين من جنس الإنسان الجزوع إذا مسّه الشّر، المنوع إذا مسّه الخير، فإنّها تصفهم إبتداءً بأنهم المصلون المداومون على أداء الصلاة، قال تعالى[6]: ﴿إلاّ المصلّين. الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ كما تصفهم انتهاءً بأنهم المحافظون على صلاتهم، قال تعالى[7]: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَ به أمر فَزِعَ إلى الصلاة[8]. يقال: قام الشيء أي دام وثبت، من قولك قام الحق أي ظهر وثبت[9] وأقامه أي أدامه، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع[10].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٢.
(٢) الآية: ٤٥.
(٣) الآيات ١-٩.
(٤) سورة المؤمنون ١, ٢.
(٥) سورة المؤمنون ٩.
(٦) سورة المعارج ٢٢، ٢٣.
(٧) سورة المعارج ٣٤.
(٨) تفسير القرطبي ١٤٨.
(٩) تفسير القرطبي ١٤٣.
(١٠) تفسير القرطبي ١٤٣.

وبشأن نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر ودورها البليغ في نظافة المجتمع ونقائه في إمكاننا أن نستدلّ على ذلك بدور الصلاة في المرحلة الثانية من مراحل تحريم الخمر في التهيئة لتحريم الخمر تحريماً قاطعاً وتلبية المجتمع المسلم الحكم بتحريم الخمر واعتبارها أم الخبائث والامتناع عن شربها على الفور حتى إنّ من كان في فيه شيء منها مجّه. في الآية الكريمة التاسعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة جاء القول: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ وفي الآية الكريمة الثالثة والأربعين من سورة النساء جاء القول: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون﴾ وفي الآيتين الكريمتين التسعين والحادية والتسعين من سورة المائدة جاء التّحريم النهائي للخمر في قول الحق جل وعلا: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمس والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

إن توزيع أوقات الصلوات في الإسلام لطيفٌ وجليلٌ وجميل، بحيث لا يتخلل وقت العمل أو الراحة صلاة مفروضة، وأعني بوقت العمل مابين صلاة الفجر والظهر، وبوقت الراحة مابين صلاة العشاء والفجر، وحينما يُنْهَى المؤمن في المرحلة الثانية من مراحل تحريم الخمر الثلاث عن قرب الصلاة وهو سكران فكأن ثمة وقتاً واحداً هو الذي يستطيع أن يتناولها فيه، أعني الليل ووقت الراحة بين صلاة العشاء وصلاة الفجر. ولكن المؤمن يقوم الليل ويتلو القرآن الكريم ويذكر ربّه

في كل الأوقات، وقد نصت الآية الكريمة العشرون من سورة المزمل على أنّ طائفة من المؤمنين تقوم الليل كما يقوم المصطفى ﷺ وذلك معناه عدم الاقتراب من الخمر. ومعناه أن للصلاة قبل تحريم الخمر تحريماً قاطعاً دوراً بليغاً في منع الناس من شربها من ناحية، وتهيئتهم للامتناع عن شربها بالكليّة عند تحريمها من ناحيةٍ أخرى.

أما وقد تبين شيء من دور الصلاة العظيم في اجتناب الخمر قبل أن تحرّم تحريماً قاطعاً وكان من سمات خير أمة أخرجت للناس الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه كما جاءت في القرآن الكريم والسّنّة النبوية المطهرة فإن واجب هذه الأمة المسلمة أن تمتثل لأحكام الله تعالى في تحريم الخبائث وإحلال الطيبات. وكيف لا تجتنب الأمة المسلمة لله رب العالمين الخمر وهي أم الخبائث، وهي التي ثبت شرعاً وعقلاً أذاها البالغ، وهي التي يحرص أولو النُّهى في البلاد التي ابتليت بها ودمّرت الأخلاق والعفّة والصِّحّة أن تقلل من الإدمان عليها ففشلت، فضلاً عن أن تنهى عنها وتحرّم شربها، قال تعالى[1]: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

إنّ دور الصلاة بليغ في النهي عن كل فحشاء ومنكر فعلى الأمة الإسلامية أن تقيم الصلاة وأن تعمر المساجد بيوت الله تعالى مادّيّاً بتشييدها ومعنويّاً بذكر الله تعالى فيها، قال تعالى[2]: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خِلال﴾ وقال تعالى[3]: ﴿إنّما يَعْمُرُ مساجد الله من

(١) سورة الحشر آية ٢.
(٢) سورة إبراهيم آية ٣١.
(٣) سورة التوبة آية ١٨.

آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ وقال تعالى[1]: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله. والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

وكانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة: الصلاة ومامملكت أيمانكم. حتى جعل يغرغر بها صدره ومايكاد يفيض بها لسانه[2] ﷺ.

(١) سورة النور ٣٦-٣٨.

(٢) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٣٤٣.

[٤] الإنفاق مما رزق الله تعالى عباده :

قال تعالى : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ .

جمع القرآن الكريم بين الصّلاة والزكاة فيما يزيد على الثمانين موضعاً . وفي القول من سورة البقرة في صفات المتقين ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ يُجمَعُ بين الصلاة وبين الإنفاق مما رزق الله تعالى ، وتدخل الزكاة ضمناً في هذا النوع من الإنفاق . وفي النص على أن الإنفاق إنما هو من المال الذي رزق الله تعالى عباده تنبيه إلى مصدر هذا الرزق وطبيعته فيجب أن يكون طيّباً حلالاً لأن الله سبحانه وتعالى طيّب ولا يقبل إلا طيّباً .

وإذا كنا فهمنا من القول ﴿ويقيمون الصلاة﴾ دخول الصلاة المفروضة أساساً ، النوافل ضمناً ، فإنّا يصحّ أن نفهم من القول : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ شمول كلٍّ من الزكاة والصّدقات والنوافل جميعاً ، وكأنّ في هذا القول تنبيهاً كبيراً على النوافل إضافة إلى التنبيه على أهمية الزكاة ، الرّكن الثالث من أركان الإسلام . والمعروف أنه بعد الشهادتين ، أوّل أركان الإسلام وأهمّها ، تأتي الصلاةُ متقدمةً في الدلالة على حقّ الله تعالى الذي يتّجه إليه جل وعلا مباشرة ، وتأتي الزكاة بعد ذلك متقدمةً في الدلالة على حق الله تعالى مروراً بعباده جل وعلا ، وعلى الأهمية المتميزة للمال في الإسلام . إن الصلاة إذا كانت تأتي على رأس العبادات فإن الزكاة تأتي على رأس المعاملات .

وإن الإنفاق مما رزق الله تعالى يشمل وراء الزكاة كلَّ ماينفقه المرء في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته بما في ذلك نفقته على نفسه وعياله ومن في حكمهم من الأهل والأرحام، وذلك في ضوء مثل قوله عز من قائل في آيات الحكمة في سورة الإسراء[1] : ﴿وآت ذا القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً. ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً. إنّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ .

وبشأن الإنفاق مما رزق الله تعالى نود أن نتحدث عن مسألة واحدة بالذات هي مسألة الوقف بشقّيه الخيريّ والذُّرِي انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية. أو علم ينتفع به. أو ولد صالح يدعو له»[2] والمقصود بالصدقة الجارية الوقف[3] وهو في اللغة : الحبس، وفي الشرع : حبس الأصل وتسبيل الثمرة[4] أو المنفعة، والوقف أحياناً يكون على الأحفاد والأقارب ومن بعدهم إلى الفقراء، ويسمى هذا بالوقف الأهلي أو الذُّرّي. وأحياناً يكون على أبواب الخير ابتداءً ويسمى بالوقف الخيري[5] وقد وقف رسول الله ﷺ ووقف أصحابه المساجد والأرض والآبار والحدائق والخيل. ولايزال الناس يقفون من أموالهم إلى يومنا هذا[6].

---

(١) الآيات ٢٦ - ٣٠ .
(٢) صحيح مسلم ١١/ ٨٥ .
(٣) فقه السنة ٣/ ٣٧٨ .
(٤) فقه السنة ٣/ ٣٧٨ .
(٥) فقه السنة ٣/ ٣٧٨ .
(٦) فقه السنة ٣/ ٣٧٩ .

وبما أن لكاتب هذه السطور تجربة مع الوقف فإنه في ضوء الخير العميم من الوقف الذّرّي والخيري ينتهز هذه المناسبة الطيبة المباركة كي ينبِّه إلى الدور العظيم للوقف في الإسلام، لأنّ رأس المال ثابت ولأن المنفعة مستمرة بفضل الله تعالى. وما أكثر الأوقاف في ديار الإسلام وفي كل مكان، وما أحوج هذه الأوقاف للمحافظة عليها والعناية بها وتنميتها وصرف رَيْعِها في وجوه البر. إن الأوقاف حينما تجد العناية اللائقة بها فإنها بإذن الله تعالى ستغطي الكثير من احتياجات الأمة الإسلامية في جميع وجوه البرّ والخيرات.

وقديماً نظم السيوطي عشراً من خصال البِرّ في القول:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... عليه من فِعال غيرُ عشر
علومٌ بثّها ودعاء نجل ... وغرس النّخل والصدقات تجري
وراثةُ مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيتٌ للغريب بناه يأوى ... إليه أوبناءُ محلّ ذِكْر[1].

نسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين رشدهم وأن يوفقهم لكل مايحب ويرضى.

○○○

(١) فقه السنة ٣/ ٣٧٩.

[١] الإيمان بالقرآن وبالكتب السماوية السابقة :

من صفات المتقين الإيمان بالقرآن الكريم وبالكتب السماوية السابقة . إنّ المطلوب من المسلمين أن يُعنَوا بالقرآن الكريم العناية البالغة من حيث التلاوة والتفسير والعمل . والمعروف أن السنة النبوية المطهرة هي المبيّنة للقرآن الكريم . وإن للمسلمين أسوةً حسنةً في السلف الصالح الذي قفز درجات سلم الحضارة قفزاً بسبب تطبيقه تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . وبفضل الله تعالى القرآن هو القرآن والسنة هي السنة وبقي أن تكون الهمّة هي الهمّة . إنّ ربَّ العزّة يخاطب الذين آمنوا في كل زمان ومكان بقوله عز من قائل[١] : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لايشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ .

إن المطلوب من المؤمنين أن يؤمنوا بالله تعالى ربّاً ، وبالقرآن الكريم منهجاً ، وبالرسول العظيم إمَاماً ، وأن يعملوا الصالحات ، وأن يعبدوه جل وعلا وحده لا شريك له حق العبادة ، قال عز من قائل[٢] : ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ .

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .
(٢) سورة النساء آية ٥٩ .

والقرآن الكريم قد تكفل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين قال تعالى[1]: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ والقرآن الكريم قد يسّره الله تعالى للذكر، قال تعالى[2]: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ والقرآن الكريم مصدّق للكتب السماوية السابقة مهيمن عليها حافظ لها أمين عليها شهيد أنها حقٌّ حينما توافقه. قال تعالى[3]: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾.

وبشأن الكتب السماوية السابقة ذكر القرآن الكريم أربعة منها هي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. وبشأن صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام لا نكاد نعرف عنهما إلاّ الاسم. وبشأن توراة موسى عليه السلام وإنجيل عيسى عليه السلام تعرّضا بنصّ القرآن الكريم للكثير من التحريف والتغيير والتبديل والإضافة والحذف، جاء في سورة المائدة[4] قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ وقوله تعالى[5]: ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ وجاء في سورة آل عمران[6]: قوله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله

(١) سورة الحجر آية ٩.
(٢) سورة القمر آية ١٧.
(٣) سورة المائدة آية ٤٨.
(٤) الآية ١٣.
(٥) سورة المائدة الآية ٤١.
(٦) الآية ٧٨.

الكذب وهم يعلمون﴾ وقوله تعالى[1]: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس مايشترون﴾ وجاء في سورة البقرة[2]: قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

ومن الكتب التي بيّنت التّحريف البعيد المدى الذي تعرّضت له التوراة كتاب: إفحام اليهود، الذي ألفه باللغة العربية الإمام المهتدي السموءل بن يحيى المغربي ٥٧٠هـ تقديم، تحقيق، تعليق، الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية سنة ١٤٠٧هـ، ومن الكتب في نقد النصوص، التي بيّنت التحريف البعيد المدى الذي تعرّض له كل من التوراة والإنجيل والتي بينت سلامة النصّ القرآني تأكيداً لمعنى قول الحق جل وعلا: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ كتاب الطبيب الفرنسي موريس بوكاي الذي كتبه باللغة الفرنسية وترجم إلى عدد من اللغات منها اللغة العربية بعنوان: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م. إنّ بياض الأيام وسواد الليالي يؤكدان ماقرّره القرآن الكريم من حفظ الله تعالى القرآن الكريم من أدنى سوءٍ وتحريف، وما قرره من تحريف كلٍ من التوراة والإنجيل.

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧.
(٢) الآية ٧٩.

إن المسلمين يؤمنون بكل ماجاء في القرآن الكريم، وممّا يؤمنون به مايتعلق بالكتب السماوية السابقة، وبخاصة التوراة والإنجيل، وممّا يمتثلون له هذه التوجيهات القرآنية المتعلقة بالقرآن الكريم وبالتوراة والإنجيل، وبمجادلة أهل الكتاب، قال تعالى[1]: ﴿اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر. والله يعلم ماتصنعون. ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب. فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به. ومن هؤلاء من يؤمن به. وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وماكنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. ومايجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون﴾.

(١) سورة العنكبوت ٤٥-٤٩.

[٦] الإيقان بالآخرة :

اليوم الآخر جزء من الغيب في قول الحق جل وعلا : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب﴾ والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة وهي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى[١] وبذلك نكون أمام حديث خاص عن اليوم الآخر في القول : ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ بعد الحديث العام عنه وذلك ضمن الحديث عن الإيمان بالغيب الذي يندرج تحته الإيمان باليوم الآخر. ولكننا الآن بصدد جملة (يوقنون) وكأن اليوم الآخر بالذات يحتاج إلى درجة أرفع من الإيمان به ألا وهي درجة الإيقان . إن من صفات المتقين أنّهم يوقنون بالآخرة، وإنما احتاج اليوم الآخر إلى مرتبة الإيقان بسبب حظّه الصّرف من الغيب، فثمّة بعث وحساب وثواب أو عقاب وجنة أو نار ورؤية للحق جل وعلا في حق المؤمنين المتقين إلى غير ذلك من مظاهر للغيب .

وإنّ في النص على الإيقان باليوم الآخر تنبيهاً لنا نحن المسلمين على وجوب الاستعداد لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود وذلك بعمل الصالحات واجتناب السيئات، وعلى وجوب الارتقاء إلى مستوى اليقين بشأن يوم القيامة . وما معنى الإيقان بيوم القيامة إضافةً إلى الاستعداد له؟ محاربة الإلحاد بكل صوره وتصحيح مسار الحضارة المادّيّة المعاصرة ذات النصيب الأكبر من الفصام النكد بين الدّين والدنيا، الآخرة والأولى، وهو مايسمى في أبسط الصور بالعَلْمانية أي اللادينية، وذات المبدأ غير الإنساني : الغاية تبرّر الوسيلة .

---

(١) انظر مثلاً صحيح البخاري ١/ ٢٠ وصحيح مسلم ١/ ١٥٧ .

إن الإيقان باليوم الآخر معناه مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في النيّة والقول والعمل، لأن الإنسان على يقين بأنه محاسب على كل ذلك ﴿يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1].

إنّ الأمة الإسلامية وحدها هي التي طبّقت تلك المباديء حينما كانت في يدها مقاليد الأمور بفضل الله تعالى فأنصفت المظلوم ونصرت الضعيف ونشرت العدل[2]، وإن الأمة الإسلامية هي الأهل لأن تعاود الكرة وهي المؤهّلة لذلك بإذن الله تعالى شريطة الإستمساك بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ﷺ.

(١) سورة الشعراء ٨٨ - ٨٩.

(٢) انظر مثلاً من روائع حضارتنا للدكتور/ مصطفى السباعي، فصل أخلاقنا الحربية ٩٥-١١٠.

القسم الثاني
المجد الإسلامي

[١] أحوال البلاد والعباد قبل الإسلام :

من المعروف أن المصطفى ﷺ ولد في مكة المكرمة صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر بيع الأول عام الفيل الموافق سنة ٥٧٠م[١] وقيل سنة ٥٧١م[٢] فما هي أحوال البلاد والعباد خارج جزيرة العرب وداخلها آنذاك؟

كان الناس خارج الجزيرة العربية فريقين: أتباع الدين السماوي وهم اليهود والنصارى، وهؤلاء قد تغلغلت التعاليم الوثنية في أعماقهم منذ فجر كل من اليهودية والنصرانية[٣] وقد كانت اليهودية عقيدة سلالية عنصرية، كما كان المسيحيون مختلفين أشد الاختلاف إلى حد الاقتتال حول طبيعة المسيح وحقيقته عليه الصلاة والسلام. والمعروف أن أتباع المسيح عليه الصلاة والسلام ظلوا في مجموعهم مستمسكين بعقيدة التوحيد زهاء ثلاثة قرون وساروا قرابة ثلاثمائة سنة على خطوات المسيح ثم بدّلوا[٤].

والفريق الآخر من الناس خارج الجزيرة العربية هم في مجموعهم وثنيون يعبدون الأصنام، أما في فارس فقد عُرف المجوس من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية وأعظمها النار[٥] وأساطير الديانة

---

(١) انظر مثلاً سيرة خاتم النبيين لأبي الحسن الندوي ٢٧، ونور اليقين في سيرة سيّد المرسلين للشيخ محمّد الخضري ١٠، والفصول في سيرة الرّسول ﷺ لابن كثير ٩١، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٧.

(٢) انظر مثلاً: نور اليقين ١٠.

(٣) انظر مثلاً: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ١-٤.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ١٤٢.

(٥) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٤.

الإيرانية لا تقل غرابة عن أساطير الديانتين الإغريقية والهندية[١] وكانت البوذية منتشرة في الهند وآسيا الوسطى وقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت[٢] وفي الهند بلغ عدد الآلهة في القرن السادس الميلادي ثلاثمائة وثلاثين مليون إله[٣] ويقول أستاذ هندكي وهو يتحدث عن الهند في العهد الذي يلي مباشرة ظهور الإسلام في جزيرة العرب: كانت الديانة الهندكية والديانة البوذية وثنيتين سواءً بسواءً[٤] لقد كانت الدنيا كلها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادى غارقة في الوثنية. وكأنما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها[٥].

وإن من أهم الأدواء التي كانت منتشرة آنذاك غنى الحكام الفائق وفقر المحكومين المدقع، ونظام الطبقات الذي يعتبر بعض الحكام من سلالة الآلهة[٦] وبعض المحكومين منبوذين وأشقياء[٧] هذا إلى امتهان المرأة وانحطاطها إلى درك الإماء فقد كان الرجل مثلاً قد يخسر امرأته في القمار[٨].

فإذا تحولنا إلى جزيرة العرب تبينا أن حظ العرب ليس بأحسن من حظ غيرهم من الأمم وذلك أن زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

---

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٥ .
(٢) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٦ .
(٣) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٦ .
(٤) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٦ .
(٥) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٧ .
(٦) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ١٣، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣٩ .
(٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٥٠ .
(٨) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٥٠، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ١٥ .

كان قبل بعثة محمد ﷺ بنحو ألفين وخمسمائة سنة ولم يبعث الله تعالى إليهم في أثناء ذلك رسولاً[1] حتى بعث الله تعالى فيهم خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين محمد بن عبدالله ﷺ الذي أخرجهم الله تعالى به من الظلمات إلى النور ومن الضلال المبين إلى الهدى واليقين قال تعالى[2]: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾ ومن الآفات المنتشرة فيهم وأد البنات وشرب الخمر والميسر والربا والأخذ بالثأر وعبادة الأوثان. وكان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنماً[3].

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يصطفي محمد بن عبدالله ﷺ خاتم النبيين وأشرف المرسلين من العرب الأميين وقد قال تعالى[4]: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ روى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله اختار كنانة من ولد إسماعيل ثم اختار من كنانة قريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختارني من بني هاشم[5] وحينما سئل رسول الله ﷺ عن أول أمره قال: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى[6]. جاء في سورة البقرة على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام قوله تعالى[7]: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وجاء في سورة الصف[8] قوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم

(١) مباديء الإسلام لأبي الأعلى المودودي ٤٨.
(٢) سورة الجمعة آية ٢.
(٣) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٨.
(٤) سورة الأنعام ١٢٤.
(٥) الفصول في سيرة الرّسول لابن كثير ٨٩.
(٦) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ٦٤.
(٧) سورة البقرة آية ١٢٩.
(٨) الآية ٦.

مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدى اسمه أحمد. فلمّا جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾.

وربما امتاز عرب الجاهلية بأنهم كانوا أقرب إلى الفطرة من غيرهم، وأنهم لم يفسدهم الترف والأخذ بنصيبٍ كبير من الحضارة، بدليل أن أهل مكة مثلاً حينما كانت لهم السلطة قبل الهجرة إذا كانوا لم يؤمن منهم سوى ثلاثمائة شخص[١] وبنسبة واحد من خمسين من أهل البلد[٢] أو اثنين بالمائة، وذلك حصيلة دعوة المصطفى ﷺ لهم ثلاث عشرة سنة، فإن كل سكان جزيرة العرب يتحولون خلال عشر سنوات من دعوة المصطفى ﷺ بعد الهجرة من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإسلام[٣] إن جزيرة العرب هي أيضاً تحولت من الفرقة إلى الوحدة[٤] وهي وحدها تشكل سدس مساحة عالم الإسلام[٥] ولا يكاد ينقضي العجب حينما يتبين أن توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام وإمرة المصطفى ﷺ تمّ بسفك أقل قدرٍ من الدماء وإزهاق أقل عدد من الشهداء والقتلى من المسلمين والمشركين[٦] لقد كان العدد ألفاً وثمانية عشر شخصاً[٧] المسلمون منهم ٢٥٩ والكفار ٧٥٩[٨].

---

(١) نظرية الإسلام وهديه لأبي الأعلى المودودي ١٢٥ .
(٢) السيرة النبوية الشريفة ١١ .
(٣) انظر هنا: نظرية الإسلام وهديه لأبي الأعلى المودودي ١٢٥، والإسلام الفاتح للدكتور حسين مؤنس ٣، والإسلام اليوم لأبي الأعلى المودودي ١٠ .
(٤) انظر مثلاً: دحض بعض افتراءات دائرة المعارف اليهودية للمؤلف ٦ .
(٥) الإسلام الفاتح ٣ .
(٦) انظر مثلاً: نظرية الإسلام وهديه للمودودي ١٢٠ .
(٧) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ٣١٥، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٩٣، وانظر: الإسلام اليوم لأبي الأعلى المودودي ١٢ .
(٨) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٩٣ .

وبعد مضي مايزيد على ألفٍ وأربعمائة سنةٍ من هجرة المصطفى ﷺ يتبين الناظر إلى أدوار الشعوب المختلفة في نشر الإسلام أن حظّ العرب - الذين يجهلون اليوم أقدارهم وللأسف- كان أوفر من حظّ سواهم. يقول على سبيل المثال الدكتور حسين مؤنس في هذا الشأن[1]: «ولقد تولّت شعوبٌ إسلامية كثيرة فتح البلاد للإسلام مثل الفرس والترك بشتى صنوفهم، ولكن العرب وحدهم هم الذين فتحوا البلاد والقلوب معاً، وجعلوا ممّا فتحوا بلاد عروبةٍ وإسلام حقاً، كما ترى في فتوح العراق والشّام ومصر والمغرب والسودان. أمّا ما فتحه غيرهم فلا يصل قطّ إلى هذه النتيجة الحاسمة. وإليك مافتحه الأتراك العثمانيون من بلاد أوربا، فإنه لم يخلّف، على ضخامته، إلّا إسلاماً قليلاً. وكان الأفغان وأبناء المغول أحسن حظاً في الهند. وسبحان ربك الذي اختار نبيه من بين هذا الجنس الطيّب، الحسن العشرة، القريب من القلوب، ففتح به البلاد وقلوب العباد. والله أعلم حيث يضع رسالته»[2].

(١) الإسلام الفاتح ١٩.

(٢) وانظر هنا مثلاً: شهادة الحق لأبي الأعلى المودودي ٧، وأثر العرب في الحضارة الأوروبية للأستاذ عباس محمود العقاد ١١٦.

[٢] جهاد في سبيل الله تعالى :

حينما كان المصطفى ﷺ في الأربعين من عمره أرسله الله تعالى رحمة للعالمين[١] ومكث عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة بمكة ثلاث عشرة سنةً يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يزدد كفّار مكة إلا عتواً في الأرض واستكباراً. وقد أذن المصطفى ﷺ لبعض الصحابة في الهجرة إلى الحبشة مرتين اثنتين تحت وطأة بطش قريش بالمؤمنين[٢] ثمّ كان الإذن بالهجرة إلى المدينة المنورة. وبهجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ولدت دولة الإسلام. وبعد عشر سنوات لحق المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى. وبعد أن كانت حدود الدولة الفتية بعد الهجرة لا تتجاوز بضعة أميال مربعة هي حدود المدينة المنورة العاصمة، أصبحت حدود هذه الدولة حينما توفّى المصطفى ﷺ تغطي أكثر من مليون ميل مربع[٣].

والمعروف أن المكي من القرآن، وهو مانزل قبل الهجرة، يعالج أسس العقيدة، وأن المدني من القرآن، وهو مانزل بعد الهجرة، يعالج شؤون الدولة الفتية، والأمة النامية، والمجتمع المتوثب. ومما ارتبط بالمدني من القرآن آيات الأحكام، لأنّ الأحكام بحاجة إلى الدولة التي تطبقها وتنفذها، والدولة إنما وجدت بعد الهجرة.

---

(١) انظر مثلاً : الفصول في سيرة الرسول لابن كثير ٩٦ .

(٢) انظر مثلاً : السيرة النبوية دروس وعبر د. مصطفى السباعي ٤٨ . وفيه «حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي».

(٣) انظر مثلاً: الإسلام اليوم لأبي الأعلى المودودي ١٠ .

ومما له علاقة بالأحكام الآيات الكريمات المتعلقات بالقتال وبالجهاد في سبيل الله تعالى. إنّ المسلمين في مكة المكرمة حينما آنسوا في أنفسهم، قبل الهجرة، القدرة على القتال استأذنوا المصطفى ﷺ في القتال فنزل قوله تعالى[1]: ﴿كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ولما كان الحق بحاجة إلى القوة التي تحميه كان الإذن من الله تعالى للمؤمنين في السنة الثانية من الهجرة بالدفاع عن أنفسهم وذلك في قوله عزّ من قائل[2]: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربنا الله. ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور﴾ ثم كان الأمر للمؤمنين بقتال الذين يقاتلونهم من المشركين. قال تعالى[3]: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين﴾ وكان نزول هذه الآية الكريمة في صلح الحديبية سنة ستّ من الهجرة[4] ثم كان الأمر للمؤمنين بأن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، قال تعالى[5]: ﴿وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافةً واعلموا ان الله مع المتقين﴾ ويدخل في ذلك أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقاتلوا الذين لايدينون دين الحق من أهل الكتاب من اليهود والنصارى. قال تعالى[6]: ﴿قاتلوا

---

(١) سورة النساء آية ٧٧، وانظر أسباب النزول للنيسابوري ١٩٧.
(٢) سورة الحج ٣٩ - ٤١، وانظر أسباب النزول ٣٥٧.
(٣) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٤) انظر: أسباب النزول ٨٧، ونور اليقين ٢٠٩.
(٥) سورة التوبة آية ٣٦.
(٦) سورة التوبة آية ٢٩.

الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾.

ونبادر إلى القول إنّ الإسلام فتح بنفسه أضعاف مافتح المجاهدون في سبيل الله تعالى(١).

عرفنا أن جزيرة العرب تحولت في حياته ﷺ وقبل أن يلحق بالرفيق الأعلى من الشرك إلى التوحيد ومن الفرقة إلى الوحدة، فقد قاد المصطفى ﷺ بذاته الشريفة ثمانياً وعشرين غزوة وبعث سبعاً وأربعين سريّة يقودها قوّاده عليه الصلاة والسلام(٢) وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام كانت حادثة الرّدة التي جرت في أوائل خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه واستمرت نحو سنة كاملة، ثم تصاعد مدّ الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأوائل عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أصبح الفتح طوفاناً عارماً(٣) ووصف بكلمة الانفجار. أي مَثَلُ السرعة الهائلة التي أخذ بها الإسلام في الانتشار والازدهار كمثل انفجار المتفجّرات(٤) واستمرت حركة الفتح تسعاً وثمانين سنة، من سنة إحدى عشرة هجرية إلى سنة مائة هجرية(٥) ٧١٨م(٦) من الصين شرقاً إلى فرنسا غرباً ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوباً(٧) وتضم هذه البلاد

(١) انظر مثلاً: الإسلام الفاتح ٤، ١٧، ١٨، والنبي الخاتم ﷺ ٦١.
(٢) انظر مثلاً: العسكرية العربية الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطّاب ٣٢، وانظر: أوروبا والإسلام د. عبدالحليم محمود ١٥٤، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٨٣.
(٣) العسكرية العربية الإسلامية ٣٢.
(٤) الإسلام اليوم لأبي الأعلى المودودي ١٥.
(٥) العسكرية العربية الإسلامية ٥٩.
(٦) العسكرية العربية الإسلامية ٣٢.
(٧) العسكرية العربية الإسلامية ٥٩.

الشاسعة في الوقت الحاضر زهاء سبع وثمانين مملكة وجمهورية وإمارة ومشيخة في آسيا وأوروبا وأفريقية[1] وكان عَلَمُ الإسلام يرفرف على كل تلك المناطق. وفي عام ٧٥٠م أي بعد موت محمد ﷺ بـ ١١٨ عاماً أصبح قَدْح الزَّنْد في المجالات السياسية والتجارية في الشرق الأدنى في يد الدولة الإسلامية الجديدة التي مدت سلطانها على المنطقة جغرافّياً وثقافيّاً[2] وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية قد احتاجت ألف عام حتى نمت إلى اتساعها الجغرافي الكامل وحتى بلغت نضجها السياسي، فإن الدولة الإسلامية بزغت ثم بلغت أشدها في مدة وجيزة تبلغ نحو ثمانين عاماً[3] وإذا كان قرنٌ واحدٌ من الزمان كافياً لتقويض الإمبراطورية الرومانية فقد كانت الحاجة ماسة إلى أكثر من ألف ومائتي عام من الانحلال البطيء حتى يتم الانهيار السياسي نهائيّاً، ذلك الانهيار الذي تمثل في إلغاء الخلافة العثمانية، والذي تبعته العلامات الأولى فقط للتفكك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الإسلامي[4].

ونحن في حديثنا عن الفتوح الإسلامية التي شملت زهاء ثلث الجزء المعمور من الكرة الأرضية آنذاك نود أن نشير إلى عدة أمور هي:

١ – حينما يصل المسلمون إلى أي مكانٍ هم بفضل الله تعالى يستقرّون ولا يخرج الإسلام إلا بأعمالٍ شنيعة ضدّه من قبل خصومه، وذلك على غرار الأعمال الشنيعة التي عملت ضد الإسلام وأهله في

---

(١) العسكرية العربية الإسلامية ٤٩.
(٢) الإسلام قوة الغد العالمية باول شمتز ترجمة د. محمد شامة ٢٤.
(٣) الإسلام على مفترق الطرق محمد أسد ترجمة د. عمر فرّوخ ٣٦.
(٤) الإسلام على مفترق الطرق ٣٧.

الأندلس قديماً إسبانيا جديداً، إثر زوال دولة الإسلام في الأندلس، بعد حكم دام زهاء ثمانية قرون. إن المسلمين حينما كانت الكلمة لهم انصفوا المظلومين. وها هو ذا غوستاف لوبون يقول: إنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم[1] ويقول رينو في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: إنّ المسلمين في مدن الأندلس يعاملون النصارى بالحسنى، كما ان النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير[2] وفي مقابل رحمة المسلمين وعدلهم ومعاملتهم الآخرين بالحسنى انظر مافعله الإسبان حين استولوا على غِرناطة آخر مملكة للإسلام في الأندلس بعد ان أعطوا المسلمين بضعة وستين عهداً باحترام ديانتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم، ولكنهم لم يرعوا عهداً، ولم يفوا بذمة، ولم يعفّوا عن سفك الدماء وإزهاق الأرواح وسلب الثروات. فلم يكد يمضي على سقوط غِرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤م بتحويل جميع مساجد إسبانيا إلى كنائس! ولم تمرّ بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتّى لم يبق في إسبانيا كلها مسلمٌ واحد! هذا هو وفاؤهم بالعهود وذلك هو وفاؤنا[3].

٢- فتح الإسلام بذاته أضعاف ما فتح المجاهدون. وقد شاء الله سبحانه وتعالى أنه في الوقت الذي يقتطع فيه جزءٌ من أجزاء الإسلام،

---

(١) من روائع حضارتنا د. مصطفى السباعي ٩٤، والسيرة النبوية د. مصطفى السباعي ١٥٥.
(٢) من روائع حضارتنا ٩٢.
(٣) من روائع حضارتنا ١٠٨، ويقول أبوالحسن الندوي في كتاب: إلى الإسلام من جديد: ٢٢: «وهل إسبانيا الحاضرة إلا مدنية بلا روح، وحياة بلا مبدأ وأمة بغير رسالة للعالم». وتقول زيجريد هونكة، مجلة المنهل العدد ٤٩٤ ص١٣٩: «والحقيقة أنه بخروج المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢م انتهى عهد السّماحة إلى الأبد».

ويتم ذلك عادةً حينما يكون المسلمون ضعفاء، يضمّ الإسلام الدين الطيار إلى حوزته أراضي أوسع وممالك أرحب. إنه - على سبيل المثال- في الوقت الذي تضيع فيه الأندلس يضم الإسلام إلى حوزته في تلك الأثناء ممالك في آسيا الصغرى وفي جنوب شرقيّ آسيا. وإنه - على سبيل المثال أيضاً - في الوقت الذي تقوم فيه دولة البغي إسرائيل في أرض فلسطين وتطرد أهلها تقوم دولة الباكستان الفتيّة. ثم إن الأمل كبيرٌ في الله تعالى أن يعود للإسلام مجده ويلتئم عقده.

٣- إن الإسلام الدين الطيار إنما استطاع أن يستقر في الأماكن التي وصل إليها بسبب أخلاق أتباعه الفاضلة، فالثابت أن المسلمين فتحوا بأخلاقهم القلوب بأكثر مما فتحت سيوفهم الحصون، ولله الحمد والمنة. وهذا ما سنحاول بإذن الله تبيينه فيما يلي: